حلت الجائحة ... اشنقوا الحرية

محمد تملدو | مستشار أول بالمركز العربي للأبحاث .

أكلما حلت أزمة بالبشرية نادت أصوات بشنق الحرية ؟

مثال شعبي مغربي قديم يقول " سقطت الصومعة ... إذن ، اشنقوا الحلاق" لا أحد يعرف أسباب نزول هذا المثل الشعبي ، لكن الظاهر أن الحلاق نقطة التقاء لجميع رجال الحي ، يعرض خدمته على الجميع ، لا يستثني أحدا ، ثم انه يوفر الطلبات كلها ، محترما الأذواق والأعمار والرتب وما إلى ذلك . فهو كالسوق يجسد تنوع العرض استجابة لتنوع الطلب ، كما يجسد وظيفة أخرى كانت تنفرد بها السوق ألا وهي وظيفة تبادل الأخبار والمعلومات ، ثم انه بحكم طبيعة الانفراج التي تسود الأجواء عنده ، كان ولا يزال مصرحا لحرية التعبير . فلا غرابة إذن أن يكون في وقت من الأوقات مصدرا للتخابر بشأن ما يحاك ويروج فيدبر من أمر المشتغلين في الظلام . ولعل صفة حرية التعبير هذه التي ظل الحلاق يجسدها حول موضوعات الساعة الساخنة دون رقيب ظاهر هي التي شكلت خطورته وهي التي جرت عليه ويلات الاشتباه التلقائي في كل ما يحدث من دسائس وغيرها . فكانت رأسه لأجل ذلك معرضة للشنق عند كل مصيبة تصيب الحي أو القرية أو المدينة أو البلد ...

كذلك الأمر بالنسبة للحرية ، وهي توضع اليوم مرة أخرى ، في مرمى دعاة الرجوع إلى الدولة الرزاقة الطاعنة الكاسية الحامية ... والزج بالحرية ومشتقاتها إلى حبل المشنقة ...

يقول ادكارموران E.MORIN في هذا الصدد : " ينبئنا فيروس كرونا المستجد بأنه ينبغي على البشرية جمعاء ، ان تعيد البحث عن طريقة جديدة من المحتمل أن يتخلى فيها الإنسان عن النيو ليبرالية لغاية التوصل إلى اتفاق سياسي اجتماعي جديد ، يتم خلاله الحفاظ على الخدمات العمومية ، ويعالج آثار العولمة ، ويعيد توطين الأنشطة والصناعات الحيوية بالنسبة لكل أمة من الأمم ..." وكأنها دعوة للخروج من الانفتاح المحرر للطاقات إلى الانغلاق المفضي إلى التحكم في النصائر والضمائر

وهذا ألان باديو A.BADIEU يقول : " علينا أن نستفيد من هذه الفترة الوبائية ، ومن هذا الحجر الضروري من أجل العمل على إيجاد شخصيات جديدة ، ومشروع سياسي جديد يفضيان إلى تقدم عابر للأوطان تتجسد فيهما مرحلة ثابتة للشيوعية بعد المرحلة الأولى اللامعة لابتكارها ، ومرحلة تجربتها الدولية المهمة جدا ، وان كانت قد انتهت بالهزيمة في نهاية المطاف ..." وهو يوصي بأن يعتمد هذا المشروع على فرض قيود على المستثمرين وعلى الشعب ... من أجل انقاذ ما يمكن إنقاذه ولو بالعودة إلى دولة الرفاه تفاديا لكارثة استراتيجية"

إنها ادن حمى الأخذ بالثأر من الحرية ومن اقتصاد السوق وما يجري مجراهما من ديمقراطية ومنافسة وحقوق الإنسان ، وكأن الأمر مجرد لعبة شطرنج يتبادل فيها الربح والخسارة بين لاعبين ، إلا أن الأمر ليس لعبة ، بل إن العالم الجديد في طور التشكل واللاعبون لم يعلنوا بعد عن أنفسهم ، والسبب هو أن الجائحة لم تنته بعد والحصيلة لم تتضح بعد والمنتصر لم يعلن بعد ، لذلك فكل الأماني والتأويلات الصادرة عن توحيد سابق أو توجه مسبق ، هي أماني فاقدة للأسس .

ومع ذلك فالإشكاليات التي تناولناها تظل قائمة ومعها جملة من التساؤلات الفلسفية والقيمية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية .

فالجائحة كانت على الدوام محطة امتحان وتقييم وإعادة نظر وتصحيح ، كما أنها ، وهذا هو الأهم كانت مرحلة لبناء " معنى جديد" للكائن ولمحيطه ولطبيعة مستجدة للعلاقة بينهما كما أنها كانت أيضا وستظل محطة لإعادة ترتيب الأولويات .

وسواء أردنا ذلك أم لم نرد ، فان من يعطي المعنى "هو الفرد الواعي" الذي يصعب على مهندسي الثقافات أن يخترقوا قناعاته ويستحيل على الإيديولوجيات أن تضعه في أقفاصها لان الشخص الواعي شخص حر بالضرورة . ولما كان الوعي مبتدءا وخبرا ، ينطلق من فعل الواقع ويخلص إلى إصلاحه فان له ملامح داله على ما يمكن أن يؤول إليه هذا الإصلاح .

مؤشرات وأعراض عالم ما بعد الجائحة

أولا : مخطئ من يعتقد أن القوي على المستويين الاقتصادي والسياسي سيظل قويا إلى الأبد ، وأن الضعيف سيضل على حاله بالضرورة ، فالجائحة تجسد مفهوم التداول على القوة الاقتصادية والسياسية عبر الحقب التاريخية المتتالية ، فغير مستبعد على الإطلاق أن تؤول القوة إلى عوالم منسية أو عوالم وضعت في الظل لتصبح في الواجهة الريادية الاقتصادية والسياسية .

ثانيا : إن القاعدة الفكرية التي أرسى على قواعدها علماء التنوير في القرن الثامن عشر أسس تقدم الغرب السياسي والاقتصادي أخذ يدب إليها الوهن بعد أن مضى على وضعها أزيد من ثلاثة قرون تغيرت خلالها معالم الإنسان والعالم ، ولم يعد الهدف الذي خلقت من أجله هذه الأسس والذي كان يرمي إلى تحقيق المساواة ، صالحا ولا ملائما . فمجتمعات اليوم اختارت لها مجالا مغايرا لتحقيق هذه المساواة ، ذلك هو العالم الأزرق الافتراضي الذي أصبح المواطن الرقمي يتداوله بشكل يومي وهو عالم لا حدود له يحقق الديمقراطية والحرية والترابط اللا محدود مما يطرح العديد من الأسئلة حول هذا العالم وما يجلب إليه وكيفية تدبيره وجعله في خدمة الإنسانية بشكل منتظم متعقل ورصين .

وقد آن الأوان لفتح نقاش جدي حول هذه الأنماط من الفضاءات بالجاذبية الكبيرة المؤسسة على الحرية والمساواة والتخلص من القيود ، فالانتخابات كما نعيشها حاليا لم تعد مستجيبة لرأى ومتطلبات هذا الجيل الرقمي ، وهي بذلك قد وصلت مداها ولم تعد تصلح إلا لتعيين ممثلين ما إن ينصبوا حتى يفرضوا على ناخبيهم قوانين لا يسع الناخب إلا أن يمتثل لها وذلك لضعف وسائل المراقبة المباشرة .

ثالثا : يرى العديد من المراقبين أن العالم القادم سيكون عالم المعرفة بالدرجة الأولى وسيكون للإبداع والاختراع دوره الأكبر في خلق الثروة والتقدم الاقتصادي وغير خاف أن بلادنا معروفة بمخترعيها من جيل الشباب المتيقظ المبادر والمقبل على التحدي العلمي والمعرفي والتكنولوجي وان الأخذ في الاعتبار لهذا المعطى هو الذي يجعل من تحرير الطاقات الشابة وغيرها منحى استراتيجيا في تحديد الريادة المستقبلية لبلادنا .

رابعا : كل المؤشرات تدل على أن أزمة مالية شبهها البعض بالتسونامي مالي في طريقها إلى اجتياح العالم الاقتصادي ومن المرتقب أن تحدث دمارا هيكليا عميقا مما يفرض على عوالمنا العربية والإفريقية أن تستعد لذلك من خلال تقوية نسيج اقتصادي يقوم على دعم المقاولة المتوسطة والصغيرة والصغرى ومن خلال فتح المجال لثقافة الإبداع والابتكار . فقد عانت هذه المنطقة من سوء تنزيل ما كان يسمى بنقل التكنولوجيا والتي أشاعها الغرب في الستينيات من القرن الماضي وهو يحاول استغلال اليد العاملة الرخيصة والثروات الباطنية الإفريقية والعربية المهدرة ،

إذ كان المقابل أصلا أن تنقل التكنولوجيا كمعارف أولية لا كمنتوجات استهلاكية ، مما أحال هذه المنطقة إلى سوق استهلاكي لمنتوج الإبداع الغربي .

خامسا : تعتبر القيم أحد الموضوعات المطروحة على العالم القادم . فعودة الاعتبار للإنسان وللطبيعة والمناخ وللجانب اللا مادي من أهم الموضوعات التي اختمرت في الدهن البشري على ضوء المعاناة مع الجائحة ومع الحجر ومع الآلام الناتجة عن فقدان الأهل والمال والمتاع ، ولعل هذه الدروس أيقظت في الإنسان نوازع جديدة نحو المحبة والايخاء والتراحم والعناية بذوي القربى وغيرها من الخصال الإنسانية النبيلة ، وعلمت الإنسان أن يعتد بمن هو في داخله وليس بمن يظهر عليه من خلال ما يملك من مال وثروة وجاه .

إنها إذن ثورة المحجورين الذين سيشكلون الجهة المنتصرة على الجائحة .